فضيلة العفة

العفة : فضيلة الفضائل الإنسانية، وخلة من أجمل الخلال، التى تسمو بالنفس، وتصل بها إلى مراقى السعادة.

والعفة: ضبط النفس عند الشهوات وقسرها على الاكتفاء، بما يحفظ الصحة، واجتناب السرف والتقصير، وقصد الاعتدال. وأن يكون ما يقتصر عليه من الشهوات على الرجه المستحب المتفق على ارتضائه، وفى أوقات الحاجة التى لا غنى عنها وعلى القدر الذى لايحتاج أكثر منه.

والعفة : إحدى الفضائل الكبرى، وهى الحكمة، والعفة ، والشجاعة، والعدالة، فالحكمة فضيلة العقل، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية، والعفة فضيلة القوة الشهوانية، والعدالة هى الفضيلة الجامعة بين هذه الفضائل كلها.

ويرى ابن مسكويه: أن الفضائل التى تحت العفة كثيرة منها : الحياءُ، والدعة، والصبر، والسخاءُ، والحرية، والقناعة، والدماثة والانتظام، وحسن الهدى، والمسالمة والوقار، والورع.. فالعفة أصل لكثير من الفضائل الهامة، ومن حرم العفة لم تتم له واحدة من الفضائل الإنسانية، ومن يفقد العفة لايثبت على محن الأيام، ولا يقنعه قليل ولا كثير ، ولا يمسك لسانه عن باطل، ولا يتوزع عن الولوغ فى الأغراض، ولا يستطيع أن يتخلص من تعطيش نفسه إلى لانتقام.

وكذلك لا يستطيع أن يسخو عند نداء صوت الواجب، ولا أن يعدل فى معاملته بل يتمنى لو عاد كل نفع إليه، واجتمع كل خير لديه.

والعفيف من يباشر الأمور على وفق الشريعة والمروءَة والعقل.

والعفيف يعطى الكثير إن وجد، ويكتفى بالقليل إن فقد، ويجازى على الصنيعة إن استطاع بمثلها أو خير منها ، ، أو بالشكر حين يعجز عنها.

والعفيف يسكت عن الخنا والفحش ، ويزهد فيما ليس من حقه وإن عضه البؤس بنابه، وجرعه مر شرابه، يعاف كل خير وراءَه والمن والأذى، وينأى بجانبه عن مواطن الصغار. وتكبر نفسه حيث تتضاءل كل نفس، ويتوارى حيث لا يتظاهر إلا كل خسيس. ويتكرر كل شحيح، ويمنع كل بخيل.

وليست العفة بمانعة من طلب الحق بالوسائل الشريفة والسعى إلى المعالى من وجوهها المشروعة . وما أبدع قول عنترة:

يخبـرك من شهـد الـوقيعـة أننـى

أخشـى الوغـى وأعـف عنـد المغـنم

وقول متمم يرثى أخاه مالكا:

لا يضـمر الفحشـاءِ تحـت ردائـه

حلـو شمـائلـه عفـيـف المئـزر

وقد نجد فى بحوث كثير من العلماءِ من لا يفرق بين العفة والقناعة لتقارب مدلوليهما، ولكثرة ما يقع فى أساليب اللغة من التسامح، لأن الفضائل الإسلامية تلتقى كلها فى مجرى واحد ولكن الفرق بين العفة والقناعة فى باب الأخلاق ظاهر بين. إذ العفة تقتضى ضبط النفس عن جميع الشهوات وعن كل مالا يليق بإنسان فاضل. فالعفيف تنهاه عفته عن التعرض للمحاور مادق منها وما جل، وعن الخوض فى الأعراض وعن مماراة السفهاءِ، وعن كل ما يمس الكرامة.

أما القناهة التى هى الاكتفاءِ باليسير من مطالب البدت فقد توجد حيث لا توجد العفة، فقد يقال على رجل إنه قانع لأنه يكتفى بأقل مطالب البدن، ولكن لايقال عليه إنه عفيف لأنه لا يعف عن الكذب والغيبة.

ويذكر الباحثون فرقاً آخر : وهو أن العفة فضيلة ذاتيه لاتتغير بتغير الأحوال والأشخاص أما القناعة فنسبية، فإن ما يقنع به بعض الناس لا يقنع به آخرون . كذلك ما يعد قناعة اليوم قد لا يحسن الاقتناع به غداً وبالعكس. وقد نشاهد ذلك أو نراه رؤية علمية. وهذا امرؤ القيس وهو لايزال فى مجده يقول.

ولــو أن مــا أسعى لأدنى معيــشة
كفانى ولـم أطـلب قليـل مـن المـال
ولكــنما أسـعى لـمجـد مـؤثَـل
وقــد يـدرك المجـد المؤثَـل أمثـالـى

وعندما أحس بتقاصر قواه وعجزه عن تحقيق آماله قال :

لنــا غنــم نســوقـها غــزارا كــأن قــرون جلــتها العـصى
فتــملأ بيــتنا أقـطـا وسـمنا وحسـبك مــن غنى شبع ورى

ولعلنا ندرك فى وضوح أن العفة لا توجد إلا حيث توجد مواقع الشهوات ويسلط عليها العقل لضبطها كما يجب. ولهذا قدم الله سبحانه وتعالى الأمر بغض البصر، على الأمر بحفظ الفرج، فقال من يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ** ﴾[1].

وقال رسول الله ﷺ: «اضمنوا لى ستاً من أنفسكم أضمن لكم الجنة، اصدقوا إذا حدثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدوا إذا ائتمنتم، وغضوا أبصاركم، واحفظوا فروجكم، وكفوا أيديكم».

فالنظر رائد الفجور والعصيان، والمثير للشهوات، والمحرك للمفاسد، ولهذا أمرنا الشاعر الحكيم بتلافى هذا الضرر فى أول أمره قبل أن يستفحل . ولله در القائل:

كـل الحـوادث مبـداها مـن النـظر ومعظم النار مـن مستصغر الشرر
والمـرءُ مـادام ذا عـين يقـلبـها فى أعين الغيد موقوف على الخطر
كم نظرة فعـلت فـى قلب صاحبها فعـل السـهام بلا قـوس ولا وتـر
يـسر مقـلـته مـاضـر مـهـجـته لامـرحـباً بسـرور جـاءَ بالضـرر

(١) النور: ٣٠.

كذلك تجد الإسلام قد كلف المرأة بغض البصر، وعدم النظر إلى أجنبى منها كما حرم عليها أن تبدى دينتها خوفا من الافتتان بها، ولكى تصل بعفة نفسها، وطعارة ذيلها، إلى صون كيانها وحفظ مركزها. قال تعالى: ﴿**وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ**﴾ [النور: ٣١].

وروى البزار والدار قطنى من حديث على رضى الله عنه أنه ﷺ قال لابنته فاطمة الزهراء رضى الله عنها (أى شيء خير للمرأة؟ قالت: أن لا ترى رجلا ولا يراها رجل، فضمها إلى صدره. وقال: ذريه بعضها من بعض والله سميع عليم).

وإذا رغب المسلم لنفسه ولأُسرته حياة طيبة، وأحب أن يعيش مصون العرض موفور الكرامة، فليتأمل قول النبى الكريم محمد ﷺ «عفوا تعف نساؤكم وبروا آباءكم تبركم أبناؤكم».

فقد جعل الرسول الكريم عفة الزوجات مترتبة على عفة الأزواج ويقول الإمام الشافعى فى هذا المعنى أبياتا كلها تفيض بالعظة البالغة:

عفوا تعف نساؤكم فى المحرم ... وتجنبوا مالا يليق بمسلم

إن الزنا دين فإن أقرضته ... كان الوفا من أهل بيتك فاعلم

إن تزن فى امرأة بألفى درهم ... فى البيت قد يزنى بدون الدرهم

من يزن به ولو بجدارة ... إن كنت يا هذا لبيبا فافهم

يا هاتكا حرم الرجال وكاشفا ... ستر الحرائر عشت غير مكرم

لو كنت حرا من سلالة طاهر ... ما كنت هتاكا لحرمه مسلم

وإذا كان المسلم لايرضى لأهله السوءَ والفحشاءَ فكذلك من الإيمان ألا يرضاه لغيرهم. وقديما قيل: إذا أردت ألا تؤْذى فلا تفعل الأذى.

والعفة فى الإسلام فى شأنها شأن كثير من الفضائل السامية لاتحصل ملكتها بالتعليم النظرى، ولا تتم فضيلتها بالأمر والنهى فحسب، بل لابد وأن يصاحب ذلك قدوة ورياضة عملية. فإذا لقن النشء العفة، فلكى يألفها، لابد أن يكون المربى عفيفاً قبل كل شىء ينأى عن الدنايا، ويحبس نفسه عن نزواتها، فلا يعطى نفسه من حاجات البدن الا بقدر الحاجة فى أوقاتها المناسبة. وأن يتعود حين يسر فطم النفس عن مطالب التنعم، حتى إذا مانزلت به الأيام عن مستواه، ظل كريم النفس، موفور الكرامة.

وإن عفة رب الأسرة عن المحارم لتكون أبلغ درس فى العفة يلقنه لزوجته وأولاده. وإنه ليندر أن ترى فاجراً من بيت عفيف وإنه لمن فضل الله عن المسلمين أن كانت العفة الكاملة خلق نبينا محمد ﷺ وخلق أصحابه الأماثل وتابعيهم الأفاضل وعلماء الإسلام الأعلام.

فيا حبذا لو أننا جميعاً تنبعنا أسرار التعاليم الإسلامية، واتبعنا تلك الإرشادات الحكيمة ، وعملنا بمقتضى توجيهات الإسلام لكنا من أقوى الأمم بأسا، ولعاد لنا مجدنا الأصيل.

* * *